

عبد الماله عبد الرزاق

السور

وقف صاحب العصا عند كومة من الحجارة اشبه بتلة متراكمة ، وكان العشب يتباعدها بمقدار امتار قليلة ، بشكل بدا ان لون الارض هنا اقرب الى لون الرمل ، بدليل خلوها تماما من اية فرسة . كانت الارض هنا وهي تسور كومة الصخور قاحلة تماما .

حين دفع عصاه الى التراب ارتكنت اليه وانفرت فيه بيسر كانفرازهها في بقعة رمل عميقة ومبتلة . سحب عصاه واستدار اليه . رأى وجه الصارم فانسحب الى الوراء قليلا بشكل لا ارادي وكأنه يحاول ان يتفادى صرامة وجهه . وراه يشير بعصاه - وكومة الحجارة وراه - الى مساحة خضراء تتبدي على امتداد واسع . لوح بعصاه ، وكأنه يقيس بها - الى نفسه بالذات - جزءا منها بشكل قوس . ظل يرسم بالعصا مساحته وهو يستدير على نفسه ببطء .

نطق بصوت قاحل :

من هنا ! الى هنا .. الى هنا !

حرك رأسه مؤيدا كلامه . وادنى العصا الى قدميه وقال وكأنه يخاطب نفسه :

- لقد امتلكت هذا كله .. فهو لي .

رفع العصا مرة اخرى الى الاعلى ، وادرف قائلا :

- سور من الطين والحجارة .. ليكون عاليا .. وباب بمصرعين من تقاطع الجلوع يملو السور ، وكلب ضخم فاند على ان يشم ويسمع حتى ...

نظر في عينيه ، فارتجف هذا . واضاف بلهجة ميتة :

- حتى الهواجس !

- ويملو هذا ..

واشار الى كومة الحجارة .

حين رجما لم يره بعد ذلك بييد انه رأى عندما من الرجسالم في اليوم التالي يخفرون في الارض ، ويرفمون سورا من الطين وينقون بممولهم ومساحيهم في اعمدة من الجلوع لياب ضخم بمصرعين ، ورجالا آخرين يستفردون بسخنهم ينقلون الى الداخل ويحيطون كومة الحجارة ويشيدون شكلا لفرج يرتفع بقبة ذات لون نيلي ، تتحدّر دونها الارض القاحلة بصورة منحدر حجري اشبه

تتابع بشيء من العذر ما وراء سيقان الاشجار والنخل ، وامتد بصره الى المدى الذي يستطيع متابعته . وحين اطمأن الى خلو المكان اقترب من باب السور العالي واغلقه عليه ببطء ، وجلس الى دكة صخرية ووراه شجرة نبق ضخمة تريق حوله ظلالا واسعة . اراح ساقيه ، وضم ذراعيه الى حجره . وأطرق وهو ما يزال يمعن النظر - ولكن بالية واضحة - من وراء الباب الى الخارج متابعا بدايات الفسق وهي تهبط بصمت على رؤوس الاشجار والنخيل وتتسرب الى جدران البيوت الطينية البميّة .

تحرك كلبه . نحوه متسللا من منحدر طينيّ وبدأ يقترب منه ، وحين الفاه جالسا حركه رأسه واشرع اذنيه ودنا بهدوء . اقفى في البدء وهو يرقبه بشيء من الدهشة ، ثم كور نفسه وبسط ذراعيه وجلس يتابع مثله ما وراء باب السور .

كان يبدو ان الرجل قد استفرقته اطرافته بشكل يوحي وكأنه يعلم . كانت عيناه مفتوحتين ، وقد ضيق ما بين حاجبيه وتهدلت شفته السفلى حتى بان طرف لسانه .

وكان الكلب قريبا منه ، يهبط فكه ويميل لسانه وقد اتسعت حدقتا عينيه . كان انرجل يسحب الان قدميه ويضم ذراعيه الى ساقيه المتكورتين ويرى نفسه .. مفادرا مكانه الى غابة من الشجر والنخيل والاعشاب الطويلة والجارحة ايضا .. غابة خاليه من الاسسوار والابواب والمراقبة المتعبة .. يتبع رجلا امامه يهبط فكه ويميل لسانه وقد اتسعت حدقتا عينيه .

كانت خطوات الرجل الذي يتقدمه تضرب الارض بقوة ، وكانت عصاه تفرق الدغل اليابس والافصان الجديدة الملتفة ، وكان يجهد ان يساوق خطواته بخطوات الرجل المتقدم .

لم يكن بينهما كلام ما سوى ان العصا هي التي كانت توجبه خطواتهما . تدخل بهما جزءا من غابة نخل وتخرج بهما الى دغل من الاعشاب المتكسرة ، وتعبّر بهما السواقي المتفرعة والموزعة على شكل اخاويد .. فضلة احيانا تكاد تنظمر من فرط تحدّر الاعشاب المتباعدة تتاكل او تضمر بفعل الطين الذي يصل حتى الحافات الترابية التي تطاها الاقدام .

وصلا الان الى مساحة عريضة محفوفة بالاعشاب ، وغزيرة بالنخيل .

بالسلم الواطئ يفضي الى داخل الضريح . وحين انتهى كل شيء رأى الكلب الى جانبه يهرّ وهو يحيط بالدكة ثم استكان الى دفة ذراعه فألقى يحرّك أذنيه ورأسه الذي دسه بين ذراعيه واسترخى بين قدمي صاحبه .

انتصبت اذنا الكلب واقى مرة اخرى مواجهها السور . نبح بقوة . تحرّك صاحبه في مكانه . كان يجد صعوبة في ان يتعرف مباشرة على الموضع الذي يتحرّك فيه الكلب او يصدر نباحه . كان يسبو وكأنه يخرج تواء من حلم عميق .

يندفع الكلب الان الى الباب وهو ينبج بشكل متواصل . وغف الرجل يتأمل باهتمام ما وراء الباب .

كانت ثمة امرأة تتراجع في شبه ذعر ازاء نباح الكلب ونهوض صاحبه .

صاح الرجل من مكانه وهو يجهد في أن يميز وجه المرأة في العتمة الشفيفة التي تنسكب عليه :
- من هناك ؟ ماذا تريدان ؟

قالت المرأة في ضراعة :
- لديّ نلر .

نهر الرجل كلبه واقترب قليلا من الباب ، وصاح بلهجة خشنة :
- لا احد يدخل . ابتعدي من هنا !

قالت بصوت مرتجف وهي تحاول ان تمسك بالباب وعيناها على الكلب الذي ظلّ يدور حول نفسه بهيئة المتحفّز :
- لن اطيل .

صرخ بها :

- وفي الليل ايضا ! افربي من وجهي .

لم يكن بمقدور المرأة ان تقاوم . انسحبت ببطء وهي تفالسب رغبة اخيرة هي الكلام . لكنّ الرجل لا يبدو انه يسمع شيئا اخر ، فقد عاد الى مكانه يتبعه كلبه . وظل يتابع شيخ المرأة المنسحب قبل ان يستريح في مقعده ، ولم يستغرقه هذا سوى لحظات . وظلمت تنتصب في عينيها اشباح جذوع النخل وقياب السعف الاسود المتهدل وتضاريس لاشكال مبعثرة تفرق في العتمة الخفيفة ، وثمة قمر يتحدر بين سعفتين فينتشر ضوءه بتشويبات واضحة على ارض جرد قريبة منه ، يستطيع ان يفرّزها بصعوبة من خلل الضوء المسزق بالصورة التي تستوعبها عيناه .

يتأمل مع شمس الصباح الحقول المنتشرة خارج السور ، ويتابع حركة الفلاحين الذين يمرون قريبا من السور . ويستطيع بسهولة ان يرى اقدام البعض تتأني قليلا ، وعيون البعض الاخر تتجاوز المسافة الظاهرة عبر الباب وتروح تنظر خلفه ، محاولة ان تخترق اعماق المكان بعيدا الى المرتفع الذي يلوح بقبته النيلية الساكن بين الرمل والعشب . وعندئذ يكبر الرجل في نفسه ويكبر به كل هذا المكان ويستشعر السطوة بالاحتواء لكل الاشياء التي تحيطه . . . الحقل والضريح والفضاء الذي يستجيب لرغبة الاحتواء في ذاته فينحني طيعا مستسلما محيطا بالمكان . .

.. الكلب الذي يسبط ذراعيه ادنى الى قدميه والبنديقية التي تستريح على يديه ، عندئذ يسترخي وينتشر بجسده الضئيل على قدميه .

توقف احد الفلاحين واستندار جهة الباب . نبح الكلب وركض نحو الباب ووقف دون ان ينقطع نباحه .

لوحّ بينديقته دون ان يفادر مكانه .

- ساقول لك . الا تحب الصحبة ؟ استطيع ان اكون كذلك .
اسمح لي ان ادخل . ممي طعامي !
- ابتعد !

- ساجلس هنا . .

- ابتعد قلت لك . .

- سناكل معا . هنا !

اسرع بينديقته اليه وقال بتوحش :

- ان لم تبتعد !

همس اليه فيما يشبه الياس :

- لقد عرضت عليك !؟

- ساطلق . .

ابتعد دون ان يقول شيئا ، واختمى بعد حين .

يلهث الكلب وعيناه نصف مغمضتين في بقعة من شمس ظهيرة قانظة ، وثمة ظلال تقتحم مقعد الرجل جديدة وثقيلة لتتركه مسترخيا وهو يستروح طراوة الظل ورائحة النعاس والاحساس الميسق بالاطمئنان الذي يستشعره مثل نبض خفيف ينقر في صدغيه يتساقط مع صدق نباح الكلب ويهبط به مثل ارجوحة صنعها - ينذكر الان - بين نخلتين تنز بصوت اشبه باللهاث وهي تجيء وتمضي مع الريح .

ينتبه الكلب فجأة الى شيء ينفلت بالرائحة والحركة . يستدير بعنقه ، ويقف يتأمل صاحبه ويتحرّك الى مساحة الظلال المنتشرة ويندس ادنى الى الدكة ويجلس ثمة بشيء من الهدوء .

اقبل المرأة الى السور خفيفة ومهتزة تتأمل الباب من بعيد . تستطيع ان ترى الكلب وصاحبه . تنظر الى نخلة يبرز نصفها داخل الحقل .

تنتشر المرأة وهي تمسك بالرؤوس النائمة من السور العالي . تجرب ان ترتقيها . انفسل . تعاود المحاولة . تصعد ببطء . يستقرها زمن طويل قبل ان تقطع نصف العلو . تصل اخيرا الى حزمة العاقول المنتفخة والمنتدة على طول السور . تنظر الى النخلة . ما بينهما نصف ذراع تقريبا . تستطيع ان تقفز وتمسك (بكربة) من النخلة نائمة ان تجنبت اشواك العاقول وان انفلنت بخفة وبسرعة ايضا الى (الكربة) . تضع قدميها بين فجوات الشواك الذي يصل الى مستوى ركبتيها . تمد احدى ساقيها . تصير الاشواك بينهما .

التوقف قليلا . تلتقط انفاسها . تنظر الى النخلة مرة اخرى . يكون بمقدورها وهي تنحني قليلا ان تقفز الان . لكنها تنبأط ، بشكل يوحي بانها تمنع بالتفكير قبل ان تقدم على الخطوة التالية .

كما تسقط الكلمة طينية من غسفة هشة الى قاع نهر . . كانت حركتها . . سريعة محكمة .

سمعت نباح الكلب . امسكت بكربة النخلة بقوة ، واحتفظت بجسدها ممتدا من وراء الجذع ملتصقا به . رغم ما يتعرض له جسدها الان على امتداده من الم الوخز .

ميزت بسمعها المرتجف خطوات الكلب وهي تغفل راجعة في بقعة ليست بعيدة عن النخلة . ظلت تنتظر ساكنة .

تظل برأسها في حذر ، تشبك فتحة ثوبها بحافة كربة . تحاول سحبها . تنمّزق الفتحة ، مصدره صوتا قويا . تلتصق بشديها

مخوقا .. خارجا الى الارض التي تنتشر عبر الحقل المسور .
وقفوا جميعا امام الضريح . قال واحد منهم :
- ليتزل احدنا .. فالمرأة جريحة .
خرج من الحشد شاب تقدم وهو يقول :
- انا الذي سأتزل . انها امي .

وهبط الى السلم مسرعا ، ودفع الباب الخشبي ، ونفذ عبره الى
الداخل .

كانت عيونهم مغلقة الى الباب ، وثمة صمت عميق يرين عليهم .
ولم تفض دقائق حتى خرج الشاب وعيناه زائفتان وهو يحرق مدهولا
من فوق رؤوسهم . ثم نطق اخيرا وهو يتجاوز منتصف السلم :
- ليست في الداخل !



وضع في الباب قفل حديدي ضخيم ، واضميت عند قاعدته شمعة .
والصمت عليه اول لطخة حياء .

بفداد

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين
من ادبنا المعاصر	« «
تجديد رسالة الغفران	خليل الهنداوي
الادب المسؤول	رئيف خوري
بين آدم وحواء	د . زكي مبارك
التكسب بالشعر	د . جلال الخياط
شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
سيمون دوبوفوار او مشروع الحياة	فرانيس جانسون
كامو والتمرد	لدولويه
بابا همغواي	ا . ا . هوتشز

الذين يرزأ الآن الى الجذع . يتنابها الم صار تغالبه وهي تفضي
على شفتها بقوة . ينبع الكلب . ويواصل دورانه حول المكان .
يشيع سكون عاصف . يمضي وقت تستشعر طوله من الالم الذي
يحرق جسدها ويكاد يخدر ذراعيها وقدميها . تنظر الى الاسفل .
تجد الكلب مقميا ورأسه الى جهة السور . تفتقد القدرة على
المقاومة ، تقرر اخيرا ان تهبط مهما يكلف الامر بصد ان لاحظت ان
عودتها لا تقل خطورة عن هبوطها من النخلة . تبدا .. بخفة
متناهية متجنبة احتكاك جسدها بالنخلة . حين تشمر بكربة تريد
ان تثر بقدميها تتوقف لتتجاوزها الى كربة اخرى تجد نفسها اخيرا
اقرب الى الارض الثقيلة بالفسائل والجلود الطويلة : تستطيع ان
تختزل خطوتين او اكثر بمقدار القفزة التي ستفوزها ان طوعها
جسدها . تلتقط انفاسها وتبدا .

لم تنتظر ان تحفظ توازنها ، كانت تندفع بقدر ما تملك من قوة
تراوغ الكلب وهي تتداخل ما يبين جذوع النخل . خلفها نباح الكلب
يستيق خطواته المرعة ، وخطوات اخرى تتأخر وهاجس لا يضيء في داخلها
الا قليلا بان الرصاصة ستطلق الآن . تجد صعوبة في ان تغسل
محتفظه بقدرتها على ان تميز المسالك المائية او الترابية التي تجثم
بين جذوع النخل .

في اللحظة التي صارت المرأة في مدى البندقية التفت الى
الوراء . نمر حين رأى حشدا من الفلاحين يتدافعون ازاء باب
السور المغلق . الجبهه الرعب . اهتز كيانه فترنحت البندقية بين
ذراعيه ثم ارتفعت فجأة وانكشف جسد المرأة وانطلقت الرصاصة .

انحنى واحتضنت ساقها اليسرى ، وصدر منها ما يشبه
التأوه . ثم تحركت مترنحة لا تني تطايرء نفسها كل حين لتمسك
ساقها . وكان الضريح الان ازاءها . لاحظت لها القبة النيلية
شديدة البريق ، كبيرة وفريية ، كأنها ترتفع كل أونة من عمق
الارض لتستقيم ازاءها . احست بالارض بين قدميها طيمة مثل
بقعة طينية لزجة ، وانحدرت الى سلم ذي درجات قليلة .

كانت منحنية تماما وهي تعهد في ان تحفظ توازنها مستندة
الى جانب من جدار واطيء . كانت تهبط وهي تشعر بالقبة النيلية
الصخمة تنحدر معها .

وحين انتهت الى الدرجة الاخيرة ارتطمت بالجزء الاخير من الجدار
الواطيء وهي تلهث بقوة . كان الباب الخشبي الصغير ازاء يديها .
استندت اليه بثقل يديها فانفتح معدنا صريرا خشنا ، ودلفت عبره ،
في ظلمة الضريح ، ولم يلبث ان انطلق الباب وراءها .

انتابت الكلب حيرة فالتفت حول نفسه وعيناه على صاحبه وعلى
المرأة التي اختفت .

استعاد هدوءه وشرع بندقيته وعاد وهو يصيح بالكلب لاتبعه .
تقدم بخطوات مترنحة ازاء الحشد الذي بدأ يدفع الباب يستيقه لفظ
واضطراب . لم يعد الان بإمكانه ان يتحرك متقدما . فقد تباطأت
حركته ومالت فوهة البندقية اقرب الى الارض ، وضاع نباح الكلب
وهما يقتربان ببطء وسط الصخب والتدافع حول الباب .

وفجأة وقف الرجل وقلبه مخليا الطريق الى مجموعات من الفلاحين
تدفقت عبر الباب الذي انهار بفتة .

ركض الكلب كالمسور . صاح به صاحبه . لكن الجمع المتقدم
احاط به .

انطلقت عدة رصاصات مرتبكة . وانكشف بقعة من الحقل .
كان الكلب وحده يتسلل من بين جذوع النخل وهو يصدر نباحا